# نحو إسلامية الخطاب السياسي العربي

إعداد: عبد الحافظ زيد

The policy of the Islamic state has been derived from the principles of Islamic law as Islam is a religion and state. Islamic state political philosophy is a mixture of the Islamic doctrines and the philosophy of governance that come along with the emergence of an Islamic state. Thus began a new language of political discourse in the political arena appears beside those that known in the political language of the time.

## مقدمة

إن سياسة الدولة الإسلامية قد استمدت مبادئها من الشريعة الإسلامية باعتبار الإسلام دينا ودولة. فتكون للدولة فلسفتها السياسية وهي مزيج من تعاليم الإسلام وفلسفة الحكم في الإمبراطوريات التي عاصرت نشأة الدولة الإسلامية. وكانت السياسة الإسلامية نشأت بنشأة الدولة الإسلامية ونمت بنموها من رعاية شئون تلك الجماعة الإسلامية الصغيرة التي اعتنقت الإسلام في مكة إلى قيام ما يشبه دولة المدينة في يثرب، حتى قيام الدولة التي وسعت شبه الجزيرة العربية، وامتداد تلك الدولة إلى أطراف أخرى هي التي تكونت منها إمبراطورية

الإسلام.[1] ومن هنا بدأت لغة جديدة للخطاب السياسي تظهر على الساحة السياسية بجانب تلك اللغات السياسية المعروفة في ذلك الزمان.

وبعيداً عن الخلاف حول وجود الألفاظ (السياسية أو غيرها) الدخيلة في اللغة العربية، فإن العلماء اتفقوا على أن للمسلمين خطاباً سياسياً منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا. وقد تغير ذلك الخطاب وفق ما تتطلبه الحالة السياسية في كل عصر من العصور. ولكن مع ذلك، فقد رأى عبد العزيز الخضر أن هذا الخطاب يعاني من حالة تسيب وانفلات في المعايير بسبب عدم المقدرة على تحديد مجاله وانتقاله بين أكثر من حقل، فيبدو أحياناً كأنه مجرد خطاب وعظي بحت لرفع الشحنة الإيمانية، فيتسامح معه علمياً بحجة أنه لترقيق القلوب لكنه يتضمن فكراً سياسياً يحتاج إلى فقه سياسي عميق، لأن هذا الوعظ سيقود إلى مواقف سياسية وحالة من التصادم.[2]

---

[1] حسين فوزي النجار، **الإسلام والسياسة**، (القاهرة: دار المعارف)، ص. ٦٢.

[2] انظر مقالته في موقع جريدة الوطن على الشبكة الدولية (الإنترنت) www.alwatan.com.sa، بعنوان: **قضايا المسلمين... وخطاب ما قبل الدولة**، العدد (٩٨٥)، السنة الثالثة، الأربعاء ١١ ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ الموافق ١١ يونيو ٢٠٠٣ م.

إن الأحوال السياسية السائدة هي التي تصرف الخطاب عن غرضه. فالخطاب الديني سيظل خطاباً دينياً وعظياً إذا أُلقي في جو سياسي هادئ، والعكس صحيح. فالقيمة السياسية للخطاب الديني تحددها المقامات التي قيل فيها، أي بعبارة أخرى إن الأحوال السياسية السائدة هي التي تحدد نوع الخطاب، أسِياسيّ هو أم دينيّ؟

على سبيل المثال خطبة علي بن أبي طالب بعد أن فارقه وأصحابَه مصقلةُ بن هبيرة، وبشرُ بن أرطاة، وزيدُ بن عَديّ بن حاتم، فقال: «أيها الناس، ألا إن هذا القدر يترل من السماء كقطر المطر، على كل نفس بما كسبت من زيادة أو نقصان، في أهل أو مال، فمن أصابه نقصان في أهل أو مال فلا يغش نفسه، ألا وإنما المال حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام...»[٣].

إذا استمعنا إلى هذه الخطبة ونحن لا نعرف شيئاً عن الأحوال السياسية السائدة في اليوم الذي قيلت فيه، فإننا لن نتصور أبداً أنها قيلت لذم هؤلاء الثلاثة الذين خرجوا عن جماعة علي. إن الخطبة لا تزال في مقدمتها، ولكن السامعين العارفين بالعلاقة المتوترة بين علي ومعاوية لن

---

[٣] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، تعليق ووضع الحواشي: خليل المنصور، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ص. ٩٤.

يخمّنوا عند سماعها أنها خطاب وعظي، بل هي خطاب سياسي. فأشار علي منذ اللحظة الأولى أن هؤلاء الثلاثة دخلوا جماعة معاوية طمعاً في ماله مع أن القدر يتزل من السماء كقطر المطر، فعلى كل نفس بما كسبت من زيادة أو نقصان.

ثم استمر علي في خطبته مفصّلاً ما أجملَه من كلامه حيث قال: «وقد دخل في هذا العسكر طمع من معاوية، فضعوا عنكم هم الدنيا بفراقها، وشدةَ ما اشتدّ منها، برجاء ما بعدها، فإن نازعتكم أنفسكم إلى غير ذلك فردوها إلى الصبر، ووطنوها على العزاء، فوالله إن أرجى ما أرجوه الرزق من الله، حيث لا نحتسب، وقد فارقكم مصقلة بن هبيرة، فآثر الدنيا على الآخرة، وفارقكم بشر بن أرطاة فأصبح ثقيل الظهر من الدماء، مفتضح البطن من المال، وفارقكم زيد بن عَديّ بن حاتم، فأصبح يسأل الرجعة. وأيم الله لودّت رجال مع معاوية أنهم معي، فباعوا الدنيا بالآخرة، ولودت رجال معي أنهم مع معاوية، فباعوا الآخرة بالدنيا».[٤]

تبين من هذا المثال أن نمط الخطاب يتحدد من خلال معرفة المقام الذي قيل فيه. فالخطاب الوعظي أصبح خطاباً سياسياً إذا كان المقام يرجِّح كونه سياسياً، وفي المقابل فإنه أصبح دينياً وعظياً إذا كان المقام

[٤] المرجع نفسه، ص. ٩٤ – ٩٥.

يؤيد كونه دينياً. فقول الله تعالى في سورة آل عمران: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر»[٥] لا يُشعر بأنه خطاب سياسي إذا ألقاه الخطيب في جو سياسي هادئ. أما إذا ألقاه في جو سياسي ساخن، فلا يختلف السامعون في تفسيرهم إياه أنه خطاب سياسي وليس دينياً. وعلى الرغم من ذلك، فإننا يمكننا اعتبار الآية على أنها تتحدث في إطار سياسي لاحتوائها على لفظ ذي نمط سياسي، وهو «بطانة»، ومن هنا قال بعض العلماء إن الإسلام دين ودولة.

بعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية واستقرار الأوضاع بالنسبة للمسلمين في المدينة المنورة أصبح للخطاب السياسي لون ديني إسلامي. وحوْل اللغة السياسية في الإسلام فقد قال برنار لويس إنها كصيغ اللغة عموما. فهي في الواقع مليئة بالاستعارات بعضها مات ودفن ونُسي، وبعضها حي وذو حضور بنسب متغيرة... ويغلب الظن في أن أكثر الاستعارات المستخدمة في اللغات الإسلامية ـــشأنها في ذلك شأن اللغات الغربيةـــ من النوع المتصل بالحيز أو المكان أي يدل على المنصب والاتجاه في الحيز أو المكان. وهناك استعارات تتصل ببعض العلاقات السياسية، والتغيرات التي تطرأ على هذه التغيرات بينتها

---

[٥] سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

مصطلحات تتصل «بالفوق والتحت، والأمام والخلف، والداخل والخارج، والقريب والبعيد». لكن بينما قامت اللغة في الغرب منذ أقدم العصور باستخدام واسع للأعلى والأسفل والأمام والخلف لبيان السيطرة والتبعية، فإن اللغة السياسية العربية استخدمت هذه التصورات في أضيق نطاق، وعندما كانت تفعل فقد كان ذلك على سبيل إشارات من نوعية خاصة أكثر منها استعارات، ومن ثم فإن الاستخدام العام لأفعال من قبيل «قدم» و«أم» وكلاهما يعني «الأمام» و«القبل» لبيان الأسبقية والسلطة وكلاهما أيضا مشتق من القيادة في المعركة والصلاة».[٦]

ومن أوضح أمثلة لما قاله برنار قول عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما في السقيفة: «ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون **فوقك** يا أبا بكر، أنت صاحب الغار ثاني اثنين، وأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة. فأنت أحق الناس بهذا الأمر».[٧] وقول الرشيد لرجل طلب منه تولية قضاء العراق: «إني قد وليتك قضاء القضاة، فسر إلى

---

[٦] برنار لويس، **لغة السياسة في الإسلام**، ترجمة: إبراهيم شتا، الطبعة الأولى، (دار قرطبة، ١٩٩٣)، ص. ٢٤ – ٢٦، بتصرف.

[٧] المرجع السابق: ابن قتيبة الدينوري، ص. ١٠.

العراق لتقضي بينهم، وتولي القضاة في البلدان والأمصار من **تحت** يدك، وتوليتهم إليك، وعزلهم عليك».[٨]

هذان المثالان بمثابة بيان لما قاله برنار. ففي الأول بيّن عمر وأبو عبيدة معنى لفظ «فوق» في الخطاب المذكور بأنه «**أحق من استخلف رسول الله**» لأن أبا بكر صاحب الغار، ثاني اثنين وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة أمام الناس. وتبين من المثال الثاني أن لفظ «تحت» هنا يدل على السلطة والسيطرة.

وبجانب هذه العناصر المشتركة بين الخطاب العربي وغيره من الخطب، فإن للخطاب العربي أيضاً خصائصَ مهمةً بعد نزول الإسلام في الجزيرة العربية. وقد لخص الأدباء والمؤرخون هذه الخصائص في النقاط التالية:

١. إن اللغة السياسية في العصور الإسلامية تتسم بتأثرها بالدين الإسلامي، أو بالقرآن الكريم على وجه التحديد. فالفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الإسلام أن الإسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من تقليد أسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية. وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر أيضا، ولكن

---

[٨] المرجع نفسه، ص. ٣٣٥.

الخطابة أوسع مجالا للاقتباس. فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات القرآنية تمثلاً أو إشارةً أو تهديداً.[٩]

وذلك كخطبة عمار بن ياسر الذي اقتبس آيتين من الآيات القرآنية في خطبته، حيث قال فيها: «أيها الناس، إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين، ولعمري ما صدق فيما قال، وما رضي الله من عباده بما ذكر. قال عز وجل: «**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا**»[١٠] وقال: «**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**»[١١]

أما تأثير القرآن الكريم في ألفاظ اللغة فظاهر فيما دخلها من الألفاظ الإسلامية مما اقتضاه الإصلاح الديني أو الشرعي. وأكثر هذه الألفاظ كانت موجودة قبل الإسلام لكنها كانت تدل على معان أخرى فتحولت للدلالة على ما يقاربها من المعاني الجديدة.

---

[٩] جرجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، مراجعة وتعليق: شوقي ضيف، ج ١، (القاهرة: دار الهلال)، ص. ١٩١.

[١٠] سورة الحجرات، الآية: ٩.

[١١] سورة الأنفال، الآية ٣٩.

فلفظ «مؤمن» مثلا كان معروفاً في الجاهلية، ولكنه كان يدل عندهم على الأمان أو الإيمان وهو التصديق، فأصبح بعد الإسلام يدل على المؤمن وهو "غير الكافر"، وله في الشريعة شروط معينة لم تكن من قبل. وكذلك «المسلم»، و«الكافر»، و«الفاسق»، ونحوها.[١٢] هذا إلى جانب الألفاظ المتعلقة بالسياسة، مثل: «الخليفة»، و«الاستخلاف»، و«أمير المؤمنين»، و«البيعة»، و«الجهاد»، و«الفيء» وغيرها.

وبجانب ذلك فقد كان الرواة يروون ألفاظاً وتراكيب نطق بها الرسول ولم تسمع من العرب قبله، وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: «مات حتف أنفه»[١٣] و«حمي الوطيس»[١٤] و«لا يلدغ المؤمن في جحر واحد مرتين»، وغيرها من الألفاظ.[١٥]

---

[١٢] المرجع السابق: جرجي زيدان، ص. ١٩٧.

[١٣] وكان متن الحديث: «... أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله عز وجل». فقد قال راوي الحديث (عبد الله بن عتيك) عن هذه العبارة "إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم."
انظر: **مسند أحمد في موسوعة الحديث الشريف** (قرص مدمج)، شركة الحرف لتقنية المعلومات، الإصدار الثاني ٢.١، ١٩٩٨.

وقد استخدم علي تلك العبارة الثانية في إحدى خطبته، حيث قال فيها: «... ويحكم! ما أنتم إلا كإبل جامحة ضل عنها رعاؤها، فكلما ضمت من جانب، انتشرت من جانب، والله لكأني أنظر إليكم وقد **حمي الوطيس**، لقد انفرجتم عن علي انفراج الرأس، وانفراج المرأة عن قبلها».[١٦]

٢. بالمقارنة مع الخطابة في العصر الإسلامي، فإن الخطابة الجاهلية لم تكن ذات موضوع محدد، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها. أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول، إذ يحدِّث الناس واعظاً أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام.[١٧] وعلاوة على

---

[١٤] متن الحديث: «... هذا حين حمي الوطيس...». قال النووي في شرحه إنه شبه التنور يُسجر فيه، ويضرب مثلا لشدة الحرب التي يشبه حرها حره. وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يسمع من أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: **صحيح مسلم بشرح النووي** من نفس المصدر.

[١٥] انظر المرجع السابق: جرجي زيدان، ص. ١٩٧، بتصرف.

[١٦] المرجع السابق: ابن قتيبة الدينوري، ص. ١٢٣.

[١٧] شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)**، ط. ١٣، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢)، ص. ١١٢.

ذلك، فإنها تتميز عنها بالإيضاح وترابط الأجزاء والصياغة والنسج والإيجاز لأداء الفكرة المطلوبة.[١٨]

وذلك كقول أبي موسى عندما قام أمام الناس خطيباً واعظاً إياهم ألا يخرجوا إلى قتال إخوانهم المسلمين في تلك الفتنة التي وقعوا فيها بعد وفاة عثمان بن عفان: «أيها الناس، إن أصحاب رسول الله الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم حقاً عليَّ أؤده إليكم، إن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان، والقاعد خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي، والساعي خير من الراكب، فأغمدوا سيوفكم حتى تنجلي هذه الفتنة».[١٩]

٣. إن الخطابة في هذا العصر بعدت عن تعمد السجع، فخطب النبي والخلفاء الراشدين والصحابة تختلف عن خطب الجاهليين كقس

---

[١٨] جورج زكي الحاج، **دروس وموضوعات في أدب اللغة العربية**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٣)، ص. ١٠٩.

[١٩] المرجع السابق: ابن قتيبة الدينوري، ص. ٥٩.

بن ساعدة[٢٠] وغيره من الكهّان.[٢١] ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئا عارضا، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع في خطابته، وكان ينفر منه حين يلهج به أحد محدثيه كراهية للتشابه بالكهان في سجعهم. وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلّة الصحابة، يدل على ذلك ما

---

٢٠ هو قُسّ بن ساعدةَ الإيادي بن عمرو —وقيل شَمِر— بن عَدِي بن مالك بن أيدعَان بن النمر بن وائلة بن الطمَثَان بن عبد مناة بن يقدم بن أفصى بن دُعْميّ بن إياد خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحَكَمها في عصره. وهو أول من علا على شَرَف وخطب عليه، وأول من قال في كلامه «أما بعد»، وأول من اتكأ في خطبته على سيف وعصا. ومن أقواله المشهورة ذلك القول الذي نال إعجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسن معناه: «أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج وسماء ذات أبراج، وبحار تَزخَر، ونجوم تزهر، وضوء وظلام وبر وآثام، ومطعَم ومَشرَب، وملبس ومركب. ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمُقام فأقاموا أم تركوا فناموا؟ وإله قس بن ساعدة، ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلّكم زمانُه وأدرككم أوانُه. فطوبى لمن أدركه واتّبعه وويل لمن خالفه...».
انظر: **مختار الأغاني في الأخبار والتهاني**، اختيار بن منظور محمد بن مكرَّم (٦٣٠ — ٧١١ هـ)، تحقيق: طه الحاجري، ج ٦، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦)، ص. ٢٥١.

٢١ المرجع السابق: جورج زكي الحاج، ص. ١٠٩.

يُروَى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبْدي حين قدم عليه من غزو مكران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك، فأجابه: «أرضٌ سَهْلها جَبَل، وماؤها شَلٌّ، وثمرها دَقَل، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا». وقد أنكر عمر عليه هذا السجع، فقال له: أسجّاع أنت أم مُخبر؟[٢٢]

٤. إن الهيكل العام للخطب السياسية في العصر الإسلامي قد اتخذ لها نهجاً خاصاً، فيضم فيها الافتتاحيات، والخواتم، والحجج والأسانيد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وإضافة إلى ذلك، فإننا يمكننا أن نرى أنواعاً من التضمينات والتفاعلات النصية فيها.

ففي **الافتتاحيات**، نجد أن الخطابة وغيرها من أنواع الخطب كثيراً ما تُستَهلّ بالحمد لله والصلاة على النبي. وقد ذكر د. شوقي ضيف في تاريخه أن التحميد أصبح سنة في كل خطبة، حتى الخطبة السياسية. وكانوا يسمون كل خطبة تخلو منه بَتْراء، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على رسول الله شَوْهَاء.[٢٣]

---

[٢٢] انظر المرجع السابق: شوقي ضيف، ص. ١١٣

[٢٣] المرجع نفسه، ص. ١١٢.

ومن أمثلة الافتتاحية، تلك التي ألقاها عبد الله بن عباس أمام أصحابه: «الحمد لله الذي ألهمنا أن نحمده، واستوجب علينا الشكر على آلائه، وحسن بلائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وصلى الله علي محمد وآله محمد».[٢٤]

ولكن إذا أمعنّا النظر إلى نصوص الخطابة في كتاب «الإمامة والسياسة»، لم نجد فيها خطابةً تُستهل بالبسملة والسلام، فما يُستهل بالبسملة هو الخطب من نوع المكاتبات والعهود، مثل كتاب عبد الله بن محمد ليزيد بن هبيرة، الذي قال فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم**، هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر، وليّ أمر المسلمين، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق، وغيرهم في مدينة واسط وأرضها من المسلمين والمعاهدين...».[٢٥] وكالعهد الذي كتبه أبو بكر الصديق قبل وفاته: «**بسم الله الرحمن الرحيم**، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي

---

[٢٤] المرجع السابق: ابن قتيبة الدينوري، ص. ١٤٠.

[٢٥] المرجع نفسه، ص. ٣٠١.

قحافة آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب...»[٢٦]

أما السلام، فنادراً ما تُستهل به الخطب السياسية إلا ذلك الكتاب الذي أرسله الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأشعث، وأرسله عبيد الله بن عمر إلى عبد الله أبي جعفر، حيث قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين، من عبيد الله بن عمر. **سلام الله عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت من شاء...**».[٢٧]

أما في **الخواتم**، فنجد أن وضع «السلام» فيها عكس ما كان عليه في الافتتاحيات، حيث نراه شائع الاستخدام في الخطابة أو المكاتبات أو المحادثة. ومثال ذلك كتاب عائشة إلى أم سلمة، الذي قالت فيه: «ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك، وليس مسيري على ما تظنين، ولنعم المطلع مطلع فزعت فيه إلى فئتان متناجزتان، فإن أقدر ففي غير حرج، وإن أحرج مالي ما لا غنى بي عن الازدياد منه، **والسلام**».[٢٨]

---

[٢٦] المرجع نفسه، ص. ٢٢.

[٢٧] المرجع نفسه، ص. ٣١٩.

[٢٨] المرجع نفسه، ص. ٥٢.

أما اشتمال هيكل الخطب السياسية على **الحجج والأسانيد**، فكما سبق ذكره أن الهدف الرئيس من الخطب السياسية هو استمالة المخاطبين. فمن أجل تحقيق الاستمالة، يجب على المتكلم أن يدعم خطبه بالحجج والأسانيد القوية. فلذلك، فقد دعم كثير من أصحاب الخطب السياسية في هذا العصر الإسلامي خطبهم بالحجج والأسانيد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة لارتباطهم الروحي المتين بكتابهم المقدس ونبيهم الشريف.

ومن أمثلتها قول عثمان بن عفان أمام القوم بعد رؤيته أبا بكر وعمر في المنام: «... ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة، ولكن أتوها طائعين، يبتغون بذلك مرضاة الله وصلاح الأمة، ومن يكن منهم يبتغي الدنيا فلن ينال منها إلا ما كتب له. فاتقوا الله، فإني لا أرضى لكم أن تنكثوا عهد الله، وإني أنشدكم الله والإسلام ألا تأخذوا الحق ولا تعطوه مني «**وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي**»[٢٩] وإني عاقبت أقواما، وما أبتغي بذلك إلا الخير، وإني أتوب إلى الله من كل عمل عملته وأستغفره، أما والله لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث: الردة عن**

[٢٩] سورة يوسف، الآية: ٥٣.

**الإسلام، والزنا بعد الإحصان، ولا والله ما كان ذلك مني في جاهلية ولا إسلام، أو رجل قتل رجلا فيقاد به»**.[٣٠] فقد عزّز عثمان خطابه أمام القوم بحجتين اثنتين، إحداهما بآية من القرآن وذلك لتأكيد ضعف نفسه، فلا ينبغي لهم أن يأخذوا الحق منه، وثانيتهما بالحديث النبوي للتأكيد في نفوس السامعين أن عقوبة القتل لا ينبغي إجراؤها إلا بإحدى تلك الأسباب الثلاثة.

أما عن **التضمينات والتفاعلات النصية**، فقد أصبحت دليلاً ملموساً لتأثر العرب بلغة القرآن والحديث النبوي. فقد ذكر د. محمد عبد المطلب أنه لا شك في أن الدرس العربي القديم قد تنبّه إلى ظاهرة تداخل النصوص، وخاصة في الخطاب الشعري، بل إن هذا التنبُّه أخذ طبيعة تحليلية، حاول فيها أن يترل في صور التداخل إلى أدق مظاهرها، سواء ما تمَّ منها عن وعي، أو كان بغير وعي. وتعددت في هذا المجال مجموعة من المصطلحات التي تدقق في جزئيات التداخل، وتحاول أن تضعه داخل إطار اصطلاحي يميزه مما سواه، فـــ«الاقتباس» مثلا يمثل شكلاً تناصياً يرتبط فيه المدلول اللغوي ـــــوهو اقتباس الضوءـــــ بالمفهوم الاصطلاحي الذي يتمثل في عملية «الاستمداد» التي تتيح للمبدع أن يحدث انزياحاً

[٣٠] المرجع السابق: ابن قتيبة الدينوري، ص. ٣٩.

محدوداً في خطابه، بهدف إضفاء لون من القداسة على جانب من صياغته بتضمينه شيئا من القرآن أو الحديث النبوي... وقد يأخذ «الاقتباس» طابع «التلميح» إذا انصرف الاستمداد إلى الخطاب الفقهي، أو إلى شيء من «الأثر» و«الحكمة»، مع إبقاء التداخل في نفس الدائرة الأولى، أي يكون قائماً على النقل من سياقه الأول إلى السياق الجديد.[٣١]

من أمثلته قول سعد بن عبادة وهو متخلّف عن بيعة أبي بكر الصديق: «**لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس** ما أبايعكم حتى أعرض على ربي وأعلم حسابي»[٣٢] وكقول عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر في كتابه ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق: «إني أمنتكم بأمن الله الذي لا إله إلا هو، **الذي يعلم سرائر العباد وضمائر قلوبهم، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور...**».

إننا نرى في المثال الأول أن سعد بن عبادة قد اقتبس أسلوب كلامه «لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس» من آي القرآن

---

[٣١] محمد عبد المطلب، **قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني**، الطبعة الأولى، (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ١٩٩٥)، ص. ١٥٤.

[٣٢] المرجع السابق: ابن قتيبة الدينوري، ص. ١٤.

الكريم: «قل **لئن اجتمعت الإنس والجن** على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً».[٣٣] وفي المثال الثاني نرى عبد الله بن محمد قد اقتبس معنى كلامه من الآية القرآنية أيضا، وهي: «وهو الله في السموات وفي الأرض **يعلم سركم وجهركم** ويعلم ما تكسبون»[٣٤] وقوله تعالى: «إلا ما شاء الله **إنه يعلم الجهر وما يخفى**».[٣٥] وقوله تعالى: «**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**».[٣٦]

وبهذا عرفنا أن مجيء الإسلام إلى الجزيرة العربية قد أحدث فيها ثورة لغوية عارمة في جميع نواحيها، والتي تؤثر ليس فقط على ألفاظها وأساليبها، بل يمتد تأثيرها على مضمون ما ينطقه العرب من الكلام. فزاد فيه حكمة وبلاغة لا يتمتع كلامُهم بهما إلا بعد نزول القرآن وبعثة نبيهم الذي لا ينطق عن الهوى.

---

[٣٣] سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

[٣٤] سورة الأنعام، الآية: ٣

[٣٥] سورة الأعلى، الآية رقم: ٧.

[٣٦] سورة الغافر، الآية: ١٩.

## قائمة المراجع والمصادر


١. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة**، تعليق ووضع الحواشي: خليل المنصور، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧).

٢. برنار لويس، **لغة السياسة في الإسلام**، ترجمة: إبراهيم شتا، الطبعة الأولى، (دار قرطبة، ١٩٩٣).

٣. جرجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، مراجعة وتعليق: شوقي ضيف، ج ١، (القاهرة: دار الهلال).

٤. جورج زكي الحاج، **دروس وموضوعات في أدب اللغة العربية**، الجزء الأول، الطبعة الأولى، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٣).

٥. حسين فوزي النجار، **الإسلام والسياسة**، (القاهرة: دار المعارف).

٦. شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)**، ط. ١٣، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢).

٧. محمد عبد المطلب، **قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني**، الطبعة الأولى، (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ١٩٩٥).